# العدول عن ضمير الغيبة إلى الخطاب من سورة الفاتحة إلى آخر سورة الإسراء « دراسة دلالية »

بقلم
د/ رجب شحاتة محمود محمد (*)

## ملخص

لقد تناولت هذه الدراسة العدول عن ضمير الغيبة إلى الخطاب من سورة الفاتحة إلى سورة آخر سورة الإسراء دراسة دلالية ومشكلة البحث تتمثل في دراسة الأثر الدلالي للعدول عن الغيبة إلى الخطاب من سورة الفاتحة إلى آخر سورة الإسراء ويهدف هذا البحث إلى التعرف على مفهوم العدول والدلالة والأثر الدلالي للعدول عن الغيبة إلى الخطاب في سور القرآن من بداية الفاتحة إلى نهاية سورة الإسراء، حيث تكمن أهمية هذا البحث في دراسة العدول في الضمائر عن الغيبة إلى الخطاب وإبراز القيمة الدلالية والسمات الجمالية للعدول، وقد اتبع الباحث في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، وأظهرت نتائج الدراسة أن العدول عن ضمير الغيبة إلى الخطاب أفاد عدة دلالات منها التقريع والذم التقريع والذم، والتشريف للمخاطب، والتخويف والتحذير من الشرك.

**الكلمات المفتاحية:** الغيبة، الخطاب، العدول، الدلالة، ضمير، الفاتحة، الإسراء.

(*) جامعة المدينة العالمية، ماليزيا. ragabsh45@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2020/02/06 ▫ تاريخ القبول: 2020/05/17 ▫ تاريخ النشر: 2020/06/01

• معهد العلوم الإسلامية..... جامعة الوادي •

## مقدمة

الحمد لله الذي أودع في كتابه أسرار البيان وجعله علماً على الهدى ورسالة خالدة على مرّ الزمان، وتحدَّى به الناس على اختلاف ملكاتهم وتعدد قدراتهم ليظل آيته الخالدة وهداه المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ثم وفق أهل العلم إلى تفسيره وبيان أحكامه والكشف عن دلالته وإظهار إعجازه للعالمين، والصلاة والسلام على المعلم والمربي الأول سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،

فقد تنافس أهل العلم من أبناء هذه الأمة في دراسة ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه، لما وجدوا فيه حقلا واسعا لا قرار له، فله من الأسرار ما لا تحصى عجائبه وما لا تبلى غرائبه؛ ولأجل هذا اتجهتُ في إعداد بحث، واستخرت الله- تعالى- فهداني إلى العدول عن ضمير الغيبة إلى الخطاب من سورة الفاتحة إلى سورة آخر سورة الإسراء دراسة دلالية.

**إشكالية البحث:**

فمشكلة البحث تتمثل في دراسة الأثر الدلالي للعدول عن الغيبة إلى التكلم من سورة الفاتحة إلى آخر سورة الإسراء.

**أسئلة البحث:**

تتمثل أسئلة البحث في الأسئلة التالية:

1- ما مفهوم العدول في اللغة والاصطلاح ؟

2- ما مفهوم الدلالة في اللغة والاصطلاح ؟

3- ما الأثر الدلالي للعدول عن الغيبة إلى الخطاب في سور القرآن من بداية الفاتحة إلى نهاية سورة الإسراء ؟

**أهداف البحث:**

تكمن أهداف البحث في التعرف على مفهوم العدول والدلالة والأثر الدلالي للعدول عن الغيبة إلى الخطاب في سور القرآن من بداية الفاتحة إلى نهاية سورة الإسراء.

**أهمية البحث:**

تكمن أهمية هذا البحث في دراسة العدول في الضمائر عن الغيبة إلى الخطاب وإبراز القيمة الدلالية والسمات الجمالية للعدول.

**المصطلحات والمفاهيم**

من المصطلحات الواردة في هذه الدراسة ما يلي:

السورة: فالسورة في اللغة لها معنيان:

الأول: أن ينطق لفظ السورة بلا همز ومعناه حينئذ إما الرفعة والمنزلة والشرف قال ابن فارس:" السِّينُ وَالْوَاوُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى عُلُوٍّ وَارْتِفَاعٍ مِنْ ذَلِكَ سَارَ يَسُورُ إِذَا غَضِبَ وَثَارَ. وَإِنَّ لِغَضَبِهِ لَسَوْرَةً. وَالسُّوَرُ: جَمْعُ سُورَةٍ، وَهِيَ كُلُّ مَنْزِلَةٍ مِنَ الْبِنَاءِ.(1) وَمِنْهُ سُورَةُ الْقُرْآنِ لأَنها منزلةٌ بَعْدَ مَنْزِلَةٍ مقطوعةٌ عَنِ الأُخرى(2) وسُمِّيَتِ السُّورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ سُورَةً؛ لأَنها دَرَجَةٌ إِلى غَيْرِهَا.(3)

وإما أن يكون لفظ السورة مهموزاً (سؤرة) وهو حينئذ بمعنى البقية والفضلة من

(1) ابن فارس، أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (الناشر: دار الفكر، 1979)، مادة (س و ر)، ج3، ص 115.

(2) الجوهري، إسماعيل بن حماد، **تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1987 )، مادة (س و ر)، ج2، ص 690؛ ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط3، 1414)، مادة (س و ر)، ج4، ص 386.

(3) ابْنُ سِيدَهْ: علي بن إسماعيل، **المحكم والمحيط الأعظم**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2000)، مادة (س و ر)، ج8، ص 608.

الشيء فتقول (أسأرت) أي أفضلت من السؤر وهو ما بقي من الشراب في الإناء أن تكون سميت: سورة، لأنها قطعة من القرآن على حدة، وفضلة منه. أخِذت من قول العرب: أسأرت منه سُؤراً، أي: أبقيت منه بقية، وأفضلت منه فضلة.[1]

وأما في الاصطلاح فقال الجعبري: " حد السورة قرآن يشتمل على آي ذوات فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات".[2]

ويمكن تعريفها اصطلاحا بأنها طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع.[3]

وعرفها بعض المحدثين بقوله:" طائفة من آيات القرآن جمعت وضم بعضها إلى بعض حتى بلغت في الطول والمقدار الذي أراده الله. سبحانه وتعالى. لها" [4]

وعليه فهذه التعريفات وإن اختلفت طولا وقصرا إلا أنها ذات معنى واحد فجميعها مطبقة على أن السورة من القرآن تتكون من مجموعة آيات ضم بعضها إلى بعض.

**الدراسات السابقة:**

من خلال النظر في المكتبات العربية الخاصة والعامة- إلى جانب المجلات والبحوث العلمية المنشورة والمواقع الإلكترونية- وجد الباحثُ عدة أبحاث منها:

(1) الأنباري، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، **الزاهر في معاني كلمات الناس**، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1992)، ج1، ص 76.

(2) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط1، 1957)، ج1، ص 264.

(3) الزُّرْقاني، محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، (الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3، )، ج1، ص350.

(4) أبو شُهبة، محمد بن محمد بن سويلم، **المدخل لدراسة القرآن الكريم**، (القاهرة: مكتبه السنة، ط2، 2003 )، ص317.

1- العدول في التعبير القرآني وأثره في الدلالة رسالة دكتوراه للباحث جامعة الأزهر كلية اللغة العربية بأسيوط (2015م) وهذا البحث يتناول العدول في الحروف والألفاظ والصيغ والأبنية والتراكيب

2- ظاهرة العدول في اللغة العربية للباحث محمد إبراهيم عبد السلام رسالة ماجستير جامعة أم القرى (1410هـ) وقد تحدث الباحث عن مفهوم العدول عند اللغويين والبلاغيين، ثم مفهوم التعادل والمعادلة، بعد ذلك ذكر الباحث أمثلة العدول في الإعراب، وأمثلته في حروف المباني وفي الاسم وفي صيغ الأفعال، ثم بين أمثلة العدول في التراكيب، أما بحثي هذا فيختلف عن البحثين حيث يتناول نوعا معينا من العدول وهو العدول عن ضمير الغيبة إلى الخطاب من سورة الفاتحة إلى سورة آخر سورة الإسراء دراسة دلالية

**منهج البحث:**

يقوم هذا البحث على المنهج الاستقرائي والمنهج الوصفي والمنهج التحليلي، وذلك باستقراء الكلمات التي فيها عدول من خلال المنهج الاستقرائي، وأما عن المنهجين الوصفي والتحليلي فالمنهج الوصفي يعتمد على وصف الظاهرة ورصدها وتتبعها، وهذا المنهج من المناهج القديمة والحديثة الذي يدخل تحت لوائه الكثير من المناهج العلمية والأدبية، فإن أيةَ دراسة علمية أو أدبية تحتاج إليه فهو يعتمد على تحليل المعلومات والخصائص التي تتصل بدراسة ما، ثم يتم تنظيم تلك المعلومات التي تم تحليلها من خلال المنهج التحليلي بشكل مُنَظَّم ومُرَتَّب في البحث، وكلا المنهجين الوصفي والتحليلي سيتم استخدامهما في وصف الكلمات التي فيها عدول وتحليلها من أجل الوصول إلى المعاني والدلالات

**أدوات البحث:**

العدول عن ضمير الغيبة إلى الخطاب من سورة الفاتحة إلى سورة آخر سورة

الإسراء وأثره في الدلالة.

**حدود البحث**

يتناول هذا البحث العدول عن ضمير الغيبة إلى الخطاب من سورة الفاتحة إلى سورة آخر سورة الإسراء وسورة الفاتحة هي السورة الأولى في ترتيب المصحف وسورة الإسراء هي السورة السابعة عشرة.

**محتوى البحث:**

يشتمل ابحث على مبحثين:

المبحث الأول: العدول والدلالة

المبحث الثاني: نماذج تطبيقية للعدول عن الغيبة إلى الخطاب

## المبحث الأول: العدول والدلالة

**أولا: مفهوم العدول في اللغة:**

ورد في الموروث البلاغي والنقدي عددٌ من المصطلحاتِ التي تدلُّ على ظاهرة "التحول الأسلوبي" الذي نودُّ في هذا البحث رصد أحد معالمه واستجلاءَ دقائقِه البيانيةِ، وجمالياته الفنية. ومن تلك المصطلحات: "الالتفات" و"العدول" و"الانصراف" و"الصّرْف" و"الاعتراض" و"مخالفة ظاهر اللفظ معناه" و"خطاب التلون" و"شجاعة العربية"، و"تلوين الخطاب"، و"التوسع"[1]

ولقد آثرتُ مصطلحَ "العُدُول" عنواناً لظاهرة التحول الأسلوبي للضمائر في القرآن الكريم؛ لشيوعه، وكثرة تردده في الموروث البلاغي القديم، ومن يتأمَّلْ في المادةِ اللغويَّةِ لكلمة "العُدُولِ" يَجِدْ ما يدعمُ الإيثار له في هذا البحث.

(1) أحمد مطلوب، **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**، (الدار العربية للموسوعات، ط1، 1427) ج1ص294.

**تعريف علماء اللغة للعدول:**

ففي كتاب العين قال الخليل: "العدلُ: أن تعدِلَ الشيء عن وِجهَتِه فتُمِيلَهُ..، وَعَدلتُ الشَّيءَ: أقمتُه حتى اعتَدَلَ"(1)

وقال ابن فارس: العين والدال واللام أصلان صحيحان، لكنَّهما متقابلان كالمتضادَّين: أحدُهما يدلُّ على استواء، والآخر يدلُّ على اعوجاج فمن الأصل الأول: العَدْل من النَّاس: المرضيّ المستوِي الطّريقة، يقال: هذا عَدْلٌ، وهما عَدْلٌ وتقول: هما عَدْلانِ أيضاً، وهم عُدولٌ، وإن فلاناً لعَدْلٌ بيِّن العَدْل والعُدُولة والعدل: الحكم بالاستواء ويقَال للشيء يساوي الشيء: هو عِدْلُه، والمشرك يَعْدل بربه، كأنه يسوي به . تعالى. غيره، وعدّل الموازين والمكاييل: سواها، وعَدَلت فلاناً بفلان إذا سويّت بينهما، والعدل قيمة الشيء وفداؤه، قَالَ الله تعالى: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾(2)، أي: فدية، وكل ذلك من المعادلة، وهي المساواة، والعدل: ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو نقيض الجور، تقول: عَدَل في رعيته، ويوم معتدل، إذا تساوَى حالا حرِّه وبَرْدِه، وكذلك في الشيء المأكول، ويقَال: عَدَلته حتى اعتدل، أي أقمته حتى استقام واستوى، والعدل: التزكية، يقَال: عَدَّل الرَّجُل: زكاه، وأما الأصل الآخَر: فيقَال في الاعوجاج: عَدَل، وانعدلَ، أي: انعرج وعَدَلَ عن الشيء يَعْدِلُ عَدْلاً وعُدولاً حاد، وعن الطريق: جار وعَدَلَ إليه عُدُولاً: رجع وما لَه مَعْدِلٌ ولا مَعْدولٌ، أَي: مَصْرِفٌ وعَدَلَ الطريقُ: مال ويقال:أَخَذَ الرجلُ في مَعْدِل، الحق ومَعْدِل الباطل، أَي: في طريقه ومَذْهَبه ويقال: انْظُروا إِلى سُوء مَعادِله، ومذموم مَداخِله، ومَسالِكه(3).

(1) الخليل بن أحمد الفراهيدي، **كتاب العين**، تحقيق مهدي المخزومي، و إبراهيم السامرائي، (نشر: دار مكتبة الهلال)، مادة: (ع د ل)، ج2 ص39.

(2) سورة البقرة من الآية 123.

(3) ابن فارس، **مقاييس اللغة** مادة:(ع دل)، ج4ص246، 247؛ ابن سيده، **المحكم والمحيط الأعظم**، ج2 ص12، 15، الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس** للزبيدي تحقيق/مجموعة من المحققين (نشر: دار الهداية مادة:(ع د ل)، ج29 ص 449، 450.

**مفهوم العدول في الاصطلاح:**

في ضوء المعنى اللغوي لكلمة "العدول" يظهر في المفهوم الاصطلاحي الذي استقرَّ عليه الدرسُ البلاغي، ذلك أنَّ هناك شبهَ اتفاق على أنَّ في "العدول" معنى الخروج، أو التحول عن المألوف، ونقل الكلام من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخرَ مطلقاً، هذا الانتقال له أثره الفني، والجمالي في النص الأدبي، فالصياغة المعدول عنها تمثِّلُ اللغة في مستواها الأصلي، بينما تمثِّلُ الصياغةُ المعدولُ إليها اللغةَ في مستواها الفني، ولعلَّ هذا ما جعل الدكتور تمام حسان يؤكد أن الالتزام بـ "أصل اللغة" يعد أصولياً، يعتمد على القرائن. وربما لدواعٍ أدبية وذوقية ونفسية، ولإحداث تأثير معين يعدل عن الأصل فيصير (أسلوبا أدبياً) ذا تأثير. وهو عدول مقبول مستحب وذلك لان اللبس بتضافر القرائن وهي عنده: قرينة البنية، وقرينة الرتبة، والربط، والتضام، والإعراب، والمطابقة، والأداة، والنغمة. حيث يسمح التّرخص في إحداها او أكثر إذا امن اللبس بتضافر القرائن الأخرى.

وضحّ ذلك بقوله: قد يجعل واحدة من القرائن زائدة على مطالب وضوح لمعنى؛ لأن غيرها يُغني عنها فيكون الترخّص بتجاهل التمسك بهذه القرينة كالترخص في رفع الثوب ونصب المسمار في قول العرب: (خرق الثوبُ المسمار) أغنت قرينة التضام، الى جانب قرائن أخرى كاسمية الفاعل ورتبته متأخراً عن الفعل وغيرها أمكن تجاهل دلالة الإعراب على المعنى النحوي".[1]

وعليه فمفهوم العُدُولَ في الاصطلاح هو: "مُجَاوزةُ السُّنَنِ المألوفةِ بينَ الناسِ في محاوراتِهم، وضروبِ مُعاملاتِهم؛ لتحقيقِ سِمَةٍ جماليةٍ في القولِ، تُمتِعُ القارئَ، وتُطرِبُ السامعَ، وبها يصيرُ نصاً أدبياً.[2]

(1) د. تمام حسان، **اللغة العربية معناها ومبناها**، (نشر: عالم الكتب، ط5 2006م) ص233. 236.

(2) عبد الموجود متولي بهنسي، **العدول عن النمطية في التعبير الأدبي**، ( 1413هـ) ص 5.

ومصطلحُ العدول بمفهومه السابق من شأنه أن يمنحَنَا مفهوماً عن الالتفات أوسعَ من الدائرة التي حَصَرَها بعضُ البلاغيين في المخالفة بين الضمائر[1] وقد استَثمَرَ هذه الرؤيةَ يحيى بنُ حمزةَ العلويُّ (ت749هـ)، فمنح الالتفاتَ مفهوماً أوسعَ ليشمل كل مغايرة في الأسلوب، وَحَدَّهُ بقوله: "العُدُولُ من أسلوبٍ في الكلامِ إلى أسلوبٍ آخرَ مُخالِفٍ للأوَّلِ.[2]

وهذا التعريف يوسع دائرة الالتفات، ويجعل مفهومه يقوم على فكرة المغايرة بين أسلوب، وأسلوب، وبين لفظ، ولفظ في أداء المعاني. ثم بيَّن السّر في إيثاره هذا التعريفَ بقوله: "وهذا أحسنُ مِن قولنا: هو العدولُ من غَيبةٍ إلى خطابٍ، ومن خطابٍ إلى غَيبةٍ ؛ لأن الأول يعم سائرَ الالتفاتاتِ كلِّها، والحدُّ الثاني إنما هو مقصورٌ على الغَيبة والخطاب، لا غير".[3]

وهذا ما ذهب إليه بعضُ البلاغيين المتأخرين عندما عرَّفُوا الالتفات بأنّه: "نقلُ الكلامِ من حالةٍ إلى حالةٍ أخرى مطلقاً".[4]

ومن خلال ما سبق يتضح للباحث أن للعدول (الالتفات) مفهوماً خاصاً يتمثل في المخالفة بين ضمائر التكلم، والخطاب، والغيبة، ومفهوماً عاماً يتمثل في العدول من أسلوب إلى آخر مطلقا، وهذا المفهوم العام يشكل ظاهرة تتميز بها هذه اللغة بما تملكه من طاقات إبداعية وجمالية، وقد أشار ابن جنّي ـ رحمه الله ـ إلى جمال هذه الظاهرة

(1) الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ)، ج1ص56؛ السكاكي، **مفتاح العلوم**،(القاهرة، 1356) ص88؛ الخطيب القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**، (بيروت: دار إحياء العلوم)، ص 74.

(2) يحيى بن حمزة العلوي، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، (بيروت: المكتبة العنصرية، ط1، 1423هـ)، ج2ص71.

(3) يحيى بن حمزة العلوي، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** ج2ص71.

(4) بهاء الدين السبكي، **عروس الأفراح**، (شروح التلخيص)،( القاهرة، عام 1937هـ) ج1ص464.

بقوله:" وكلام العرب كثير الانحرافات ولطيف المقاصد والجهات، وأعذب ما فيه تلفته وتثنيّه " [1]

**ثانيا: مفهوم الدلالة**

**الدلالة في اللغة:** الدال واللام أصلان: أحدهما إبانة الشيء بأمارةٍ تتعلّمها، والآخَر اضطرابٌ في الشيء، فالأوَّل قولهم: دلَلْتُ فلاناً على الطريق، والدليل: الأمارة في الشيء، وهو بيِّن الدَّلالة[2]

في ضوء ما سبق من هذه النُّقول المُعجَمية لمادة (د ل ل) ومشتقاتها يلحظ إفادتها معنى: الإرشاد، أو التسديد، أو الإبانة وهذا ما ذهب إليه بعض المحدثين فقال:"وسجلت المعجمات لهذه المادة معان متعددة من هذه المعاني الهداية والإرشاد".[3]

**الدَلالة والدِلالة:**

وردت كلمة الدلالة بالفتح والكسر فذكر ابن قتيبة اللفظة تحت باب ما جاء على فعالة مما فيه لغتان: فَعَال وفِعَالة بفتح الفاء، وبكسرها فقال:" هي الرَّطَانة والرِّطَانة، والوَقَاية والوِقَاية، والوَكَالة والوِكالة، ودليلٌ بيِّن الدَّلالة والدِّلالة "[4].

(1) ابن جني، أبو الفتح عثمان **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، (القاهرة، وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية 1420هـ)، ج2ص 86.

(2) ابن فارس، **مقاييس اللغة**، مادة:(د ل ل)، ج 2، ص259، 260؛ ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، مادة (د ل ل)، ج11، ص247.

(3) داود، د.محمد، **الدلالة والحركة دراسة لأفعال الحركة في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة**، ( دار غريب للطباعة والنشر، 2000 م)، ص 41.

(4) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **أدب الكاتب**، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، (مصر: المكتبة التجارية، ط4، 1963)، ج1، ص442، 443؛ابن السكيت، يعقوب بن إسحاق، **إصلاح المنطق**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، (مصر: دار المعارف، ط4، ، 1949م)، ج1، ص111.

وقال ابنُ دُرَيد: " الدَّلالَةُ: حِرْفَةُ الدَّلَّال، ودَلِيلٌ بَيِّنُ الدِّلالَةِ، بالكسر لا غَيرُ"[1].

وقال الفيومي: "والاسم الدِّلالَةُ بكسر الدال وفتحها وهو ما يقتضيه اللفظ عند إطلاقه، واسم الفاعل( دَالٌّ )، و(دَلِيلٌ) وهو المرشد والكاشف".[2]

**الدلالة في الاصطلاح:**

هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال والثاني هو المدلول، وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص، وإشارة النص، ودلالة النص، واقتضاء النص[3]

وعليه فهذا التعريف السابق يطلق على لفظة الدلالة اصطلاحا.

## المبحث الثاني : نماذج تطبيقية للعدول عن الغيبة إلى الخطاب

**□ قال تعالى:** ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.[4]

**موضع العدول:**

ورد العدول في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ حيث جاءت الآية بصيغة الخطاب، ومقتضى الظاهر في ظننا أن يقال: إِيَّاهُ نَعْبُدُ وَإِيَّاهُ نَسْتَعِينُ، لملائمة صيغة الغيبة في الآيات التي قبلها في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

(1) ابن دريد، محمد بن الحسن بن دريد، **جمهرة اللغة**، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، ط1، 1987م)، مادة: (د ل ل)، ج1، ص 114.

(2) الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، مادة: (د ل ل)، ج1، ص199.

(3) السبكي، علي بن عبد الكافي، **الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي**، تحقيق: جماعة من العلماء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1404هـ)، ج1، ص204؛ الجرجاني، علي بن محمد بن علي، **التعريفات**، تحقيق: جماعة من العلماء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1983م)، ص139.

(4) سورة الفاتحة، آية 5.

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾.[1]

**سبب العدول:**

أما عن سبب العدول في الآية الكريمة فهو إظهار كمال العبادة والخضوع لله- سبحانه -، وهذا ما تبينه الدراسة في آراء العلماء

**آراء العلماء:**

وضح أبو حيان أن تغيّر الأسلوب فائدته إظهار كمال العبادة والخضوع لله - سبحانه فقال في سر العدول:" وفائدته في ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ أنَّه لمّا ذكر أن الحمد لله المتصف بالربوبية والرحمة والملك لذلك اليوم أقبل الحامد مخبراً بأثر ذكره الحمد المستقر له منه ومن غيره، أنه وغيره يعبده ويخضع له، ولذلك أتى بالنون التي تكون له ولغيره، فكما أنَّ الحمد يستغرق الحامدين كذلك العبادة يستغرق المتكلم وغيره)[2]

وعِلة العدول عند ابن كثير هي مناسبة الكلام بعضه لبعض. قال:"وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسبة ؛ لأنه من أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله. تعالى، فلهذا قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[3].

وأفاض أبو السعود فقال: "ومما استأثر به هذا المقام الجليل من النكت الرائعة الدالة على أن تخصيص العبادة والاستعانة به. تعالى. أنه لما أجرى عليه من النعوت

(1) سورة الفاتحة الآيات 2، 3، 4.

(2) أبو حيان، محمد بن يوسف، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، (بيروت: دار الفكر 1420) ج1ص43.

(3) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ط1، 1419). ج1ص 49.

الجليلة التي أوجبت له. تعالى. أكمل تميّز، وأتمَّ ظهور، بحيث تبدل خفاء الغَيبة بجلاء الحضور فاستدعى استعمال صيغة الخطاب والإيذان بأنّ حق التالي بعد ما تأمَّلَ فيما سلف من تفرده تعالى بذاته الأقدس المستوجب للعبودية، وامتيازه بذاته عمّا سِوَاه بالكلية واستبداده بجلائلَ وأحكام الربوبية المميزة له عن جميع أفراد العالمين وافتقار الكل إليه في الوجود ابتداءً، وبقاء على التفصيل الذي مرّت إليه الإشارة أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة العيان، وينتقل من عالم الغيبة إلى معالم الشهود، داعيا يامَن هذه شؤون ذاته وصفاتهُ نخصك بالعبادة والاستعانة، فانّ كل ما سواك كائناً ما كان، بمعزل من استحقاق الوجود فضلاً عن استحقاق أن يُعبد أو يُستعان ولعلّ هذا هو السرُّ في اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة في كل ركعة من الصلاة)[1]

وأضاف الألوسي قائلاً: " (ويحتمل أن يكون السرُّ أن الكلام من أول السورة إلى هنا ثناء. والثناء في الغيبة أولى، ومن هنا إلى الآخر دعاء، وهو في الحضور أولى، والله تعالى حي كريم.. وأيضاً أنه لما لم يكن في الحمد مزيد كلفةٍ بخلاف العبادة فإن خطبها أعظم، ومن أدب المحب تحمل المشاق العظيمة في حضور المحبوب، قرن سبحانه العبادة بما يُشعر بحضوره ليأتي بها العابد خالية من الكلال عارية من الفتور والملال، مقرونة بكمال النشاط موجبة لتمام الانبساط... وأيضاً أن الحمد ليس إلا إظهار صفات الكمال على الغير فما دام للأغيار وجود في نظر السالك فهو يواجههم بإظهار مزايا المحبوب عليهم ويخاطبهم بذكر مآثره الجميلة لديه.."[2].

واستمر الألوسي في سرد وجوه الجمال والكمال لله. سبحانه. وبيان اتصافه بها مما

(1) أبو السعود، محمد بن محمد **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ج1ص 15، 16.

(2) الألوسي، عبد الله بن محمود، **روح المعاني**، تحقيق علي عبد الباري عطية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415)، ج1ص 92 بتصرف.

أوجب على العبد طاعته وعبادته والاستعانة به من دون غيره. وقد انتهى الألوسي إلى بيان رأيه فقال: (وعندي – وهو من نسائم الأسحار – أن الله سبحانه بعد أن ذكر يوم الدين وهو يوم القيامة التفت إلى الخطاب للإشارة إلى أنه إذا قامت القيامة على ساق وكان إلى ربك يومئذٍ المساق، هنالك يفوز المؤمن بلذة الحضور ويتبلج جبينه بأنوار الفرح والسرور ويخلو به الديّان وليس بينه وبينه ترجمان ويُكشف الحجاب وتدور بين الأحباب كؤوس الخطاب، فتأمل في عظيم الرحمة كيف قرن سبحانه هذا الترهيب برحمتين...).[1]

وجعل البيضاوي السر في العدول هو التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطا للسامع، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد".[2]

في ضوء ما سبق من كلام العلماء يتبين أن سر هذا العدول هو أن الحامد لمّا حمد الله . تعالى . ووصفه بعظيم الصفات، بلغت به الفكرة منتهاها فتخيل نفسه في حضرة الربوبية فخاطب ربه بالإقبال، ولذلك تخلص الكلام من الثناء إلى الدعاء، والدعاء يقتضي الخطاب. إذا الانتقال من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه، فالثناء يحْسُنُ فيه الإِعلانُ العامّ، وهذا يلائمه أسلوبُ الحديث عن الغائب، والعبادةُ الدّعَاءُ يَحْسُنُ فيها مواجهة المعبود المُدْعُوّ بالخطاب.

ومما يزيد الالتفات وقعا في الآية أنه تَخَلّص من الثناء إلى الدعاء، ولا شك أن الدعاء

(1) الألوسي، عبد الله بن محمود، **روح المعاني**، ج1ص 92.

(2) البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي بيروت، ط1، 1418)، ج1ص 28؛ ابن عجيبة، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان، (القاهرة: الدكتور حسن عباس زكي –، 1419)، ج1ص60.

يقتضي الخطاب فكان قوله: إياك نعبد تخلصا يجيء بعده: اهدنا الصراط المستقيم.

□ **قال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1].

**موضع العدول:**

ورد العدول في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهو خطاب عام بعد أن كان الخطاب خاصاً لكل فرقةٍ نعتها الله تعالى بصفة مغايرة للفرقة الثانية.

**سبب العدول:**

المطالع للآية يجد أن السبب للعدول هو التنشيط للسامع وهذا ما تكشفه الدراسة عند الحديث عن آراء العلماء.

**آراء العلماء:**

ورد في تفسير البيضاوي:"لمّا عدد فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات، هَزاً للسامع وتنشيطاً له واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها وجبراً لكلفةِ العبادة بلذة المخاطبة"[2] .

فالفائدة المتحققة في العدول – في نظر البيضاوي – هي هزُّ السامع وتنشيطه

وقال أبو السعود مبينا الغرض من العدول: "إثر ما ذكر الله. تعالى. علوَّ طبقةِ كتابه الكريم، وتحزب الناس في شأنه إلى ثلاث فرق. مؤمنة به محافظة على ما فيه من الشرائع والأحكام، وكافرة قد نبذته وراء ظهرها بالمجاهرة والشقاق، وأخرى مذبذبة بينهما بالمخادعة والنفاق، ونعت كلَّ فرقة منها بما لها من النعوت والأحوال، وبيَّن مالهم من المصير والمآل، أقبل عليهم بالخطاب على نهج الالتفات هزاً لهم إلى الإصغاء وتوجيهاً

(1) سورة البقرة آية21.

(2) البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ج1ص215.

لقلوبهم نحو التلقي وجبراً لما في العبادة من الكلفة بلذة الخطاب فأمرهم كافة بعبادته ونهاهم عن الإشراك به".[1]

وإلى مثل ذلك أشار الألوسي بقوله:" لمّا بين .سبحانه. فرق المكلفين وقسّمهم إلى مؤمنين وكفار ومذبذبين ... وشرح ما ترجع إليه أحوالهم دنيا وآخرة... أقبل عزّ شأنه بالخطاب على نهج الالتفات هزاً لهم إلى الإصغاء وتوجيهاً لقلوبهم نحو التلقي وجبراً لما في العبادة من الكلفة بلذيذ المخاطبة".[2]

في ضوء ما سبق يتبين أنَّ الله خاطب الناس كلَّ الناس مطالباً إياهم العبادة له؛ لأنه خالقهم، وفي ذلك إشارة إلى عظيم قدره وارتفاع شأنه وعلو منزلته وسطوة سلطانه، وكأنه بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ أراد التنبيه والتذكير بنعمة ربوبيته عليهم، فيأيها الناس الذين هذه صفاتكم وهذه فئاتكم وتلك انقساماتكم، أنا ربكم الخالق لكم ولمن قبلكم فاعبدوني وارجعوا إلى الفطرة التي فطرتكم عليها حنفاء غير مشركين بي شيئاً، ولا تختلفوا في كوني خالقكم والليّ مرجعكم، وفي وجود (يا) التي أفادت التنبيه ما يعضد كون الأمر هنا للتذكير بآلاء الله على الناس.

▫ **قال تعالى**: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[3].

**موضع العدول:**

ورد العدول في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ حيث جاء بصيغة

(1) أبو السعود، محمد بن محمد **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** ج1ص58.
(2) الألوسي، عبد الله بن محمود، **روح المعاني**، ج1ص 181.
(3) سورة البقرة آية 214.

الخطاب، حيث عُدل عن صيغة الغيبة في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1]، وكان ومقتضى الظاهر في ظننا أن يقال: أَمْ حَسِبوا لملائمة السياق.

**سبب العدول:**

السبب في العدول هو أن يكون الموقف، والمقام حاسما، والحقيقة مكشوفة لشحذ الهمم للصبر والمصابرة وهذا ما تكشفه الدراسة في آراء العلماء.

**آراء العلماء:**

بين الزمخشري أن العدول في الآية أبلغ فقال: ولما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات- تشجيعاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لآياته وعداوتهم له- قال لهم على طريقة الالتفات التي هي أبلغ: أم حسبتم وَلَمَّا فيها معنى التوقع "[2]

وذكر الألوسي أن الالتفات غير صريح في الآية، وقد علل للالتفات في الآية فقال:"وفي الكلام التفات إلا أنه غير صريح من الغيبة إلى الخطاب لأن قوله سبحانه: كان الناس أمة واحدة كلام مشتمل على ذكر الأمم السابقة والقرون الخالية، وعلى ذكر من بعث إليهم من الأنبياء وما لقوا منهم من الشدائد، وإظهار المعجزات تشجيعا للرسول ﷺ والمؤمنين على الثبات والصبر على أذى المشركين، أو للمؤمنين خاصة- فكانوا من هذا الوجه مرادين غائبين- ويؤيده فهدى الله الذين آمنوا إلخ فإذا قيل:

(1) سورة البقرة من الآية 213.

(2) الزمخشري، محمود بن عمرو، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1407 )ج1ص 256.

بعد أم حسبتم كان نقلا من الغيبة إلى الخطاب، أو لأن الكلام الأول تعريض للمؤمنين بعدم التثبت والصبر على أذى المشركين، فكأنه وضع موضع كان من حق المؤمنين التشجيع والصبر تأسيا بمن قبلهم"[1]

وعليه فالعدول عن صيغة الغيبة إلى صيغة الخطاب في الآية الكريمة قد جاء مناسبا لهذه المواجهة في هذا المقام الحاسم لتشحذ الهمم، ويصبح الصبر والثبات الغاية القصوى إلى رضوان الله ورضائه، والفوز بالكرامة عنده، والمواجهة بالخطاب هي أبلغ وسيلة لتحقيق هذه المقاصد جميعها.

▫ **قال تعالى:** ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾[2].

**موضع العدول:**

جاء العدول في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ حيث جاء بصيغة الخطاب في قوله تعالى: ﴿مِّنكُم﴾ فعدل عن صيغة الغيبة في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾، ومقتضى الظاهر أن يقال: منهم لملائمة أسلوب الغيبة في لفظة (استجاب).

**سبب العدول:**

السبب في العدول عن الغيبة إلى الخطاب هو الإظهار بكمال الاعتناء وبشأن الاستجابة

(1) الألوسي، عبد الله بن محمود، **روح المعاني**، ج1ص 499، ؛ خديجة محمد أحمد البناني، **الالتفات في القران الكريم إلى آخر سورة الكهف** رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية جامعة أم القرى 1414، صـ 94، ظاهر الدين، **بلاغة فن الالتفات في القرآن الكريم** رسالة دكتوراه، جامعة بشاور باكستان 1993، صـ 48.

(2) سورة آل عمران، آية 195.

ولتشريف الداعين بشرف الخطاب، وهذا ما توضحه الدراسة في آراء العلماء.

**آراء العلماء:**

بمطالعة آراء العلماء وجد أن بعض العلماء قال في تعليل العدول:" والالتفاتُ إلى التكلم والخطابُ لإظهار كمالِ الاعتناءِ بشأن الاستجابةِ وتشريفِ الداعين بشرف الخطاب والمرادُ تأكيدُها ببيان سببها والإشعارُ بأن مدارَها أعمالهم التي قدموها على الدعاء لا مجردُ الدعاءِ".(1)

وإلى مثل هذا ذهب الألوسي فقال:" النكتة الخاصة فيه إظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطاب والتعرض لبيان السبب لتأكيد الاستجابة، والإشعار بأن مدارها أعمالهم التي قدموها على الدعاء لا مجرد الدعاء".(2)

في ضوء ما سبق أن العدول عن صيغة الغيبة إلى صيغة الخطاب في الآية الكريمة جاء لبيان شرف الخطاب المباشر للرجال والنساء وتعظيم لحالهم عند الله . تبارك وتعالى.

▫ **قال تعالى:** ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾. (3)

**موضع العدول:**

جاء العدول في قوله تعالى: ﴿ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ بصيغة الخطاب حيث عدل عن

(1) أبو السعود، محمد بن محمد، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** ج2 ص133.
(2) الألوسي، **روح المعاني**، ج2 ص 378.
(3) سورة الأنعام، آية 6.

صيغة الغيبة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (لهم) لملائمة السياق.

**سبب العدول:**

المتأمل في الآية يجد أن السبب في العدول جاء لمزيد من التبكيت وهذا ما تبينه الدراسة في آراء العلماء.

**آراء العلماء:**

ذكر بعض العلماء ذكر العدول في الآية ولم يذكر السر في هذا العدول ومن هؤلاء العلماء الطبري حيث قال:" فإن قال قائل: فما وجهُ قوله:" مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم"؟ ومن المخاطب بذلك؟ فقد ابتدأ الخبر في أول الآية عن قوم غَيَبٍ بقوله: "ألم يروا كم أهلكنا من قَبَلهم من قرن"؟ قيل: إن المخاطب بقوله:" ما لم نمكن لكم"، هو المخبر عنهم بقوله: "ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن"، ولكن في الخبر معنى القول = ومعناه: قُلْ، يا محمد، لهؤلاء القوم الذين كذبوا بالحقِّ لما جاءهم: ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قَرْن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم، والعرب إذا أخبرت خبرًا عن غائبٍ، وأدخلت فيه "قولا"، فعلت ذلك، فوجهت الخبرَ أحيانًا إلى الخبر عن الغائب، وأحيانًا إلى الخطاب، فتقول: "قلت لعبد الله: ما أكرمه"، و"قلت لعبد الله: ما أكرمك"، وتخبر عنه أحيانًا على وجه الخبر عن الغائب، ثم تعود إلى الخطاب. وتخبر على وجه الخطاب له، ثم تعود إلى الخبر عن الغائب. وذلك في كلامها وأشعارها كثيرٌ فاشٍ، وقد ذكرنا بعض ذلك فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع".[1]

(1) الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن** تحقيق: أحمد محمد شاكر، ( الناشر: مؤسسة الرسالة ط1، 1420 ) ج11ص 264.

وإلى مثل هذا ذهب الكرماني فقال:" كان القياس: نُمَكِّنْ لهم، لقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ – بالياء –، لكنه لما كان التقدير في الآية ما لم نُمَكِّنْ لهم ولا لكم فاجتمع الغائب والحاضر، وإذا اجتمعا، فالحكم للحاضر دون الغائب، وقيل: هذا على الاتساع، وتلوين الخطاب. ومكنته ومكنت له لغتان، فجمع في الآية من اللعن، والتمكين إعظاماً يصح به القول كائناً ما كان".(1)

أما المخاطب في لكم فقد وضحه ابن عطية بقوله:"والمخاطبة في لَكُمْ هي للمؤمنين ولجميع المعاصرين لهم من سائر الناس، فكأنه قال: ما لم نمكن يا أهل العصر لكم، فهذا أبين ما فيه، ويحتمل أن يقدر في الآية معنى القول لهؤلاء الكفرة، كأنه قال يا محمد قل لهم: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ، ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وإذا أخبرت أنك قلت لغائب أو قيل له أو أمرت أن يقال فلك في فصيح كلام العرب أن تحكي الألفاظ المقولة بعينها فتجيء بلفظ المخاطبة".(2)

ولم يذكر العكبري السر في هذا العدول عن الغيبة إلى الخطاب، كرفع الإشكال والتوهم من الضمائر المتشابهة في الآية مثلا كغيره من العلماء فقال:"﴿ **مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ**﴾ : رجع من الغيبة في قوله: ﴿**ألم يروا**﴾ إلى الخطاب في لكم، ولو قال لهم لكان جائزا".(3)

وقد بيَّن أبو السعود السر في الالتفات كعادته في تفسير آيات القرآن الكريم فقال:"

(1) الكرماني، محمود بن حمزة بن نصر، **غرائب التفسير وعجائب التأويل** (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية – ج1ص353.

(2) ابن عطية، عبد الحق بن غالب **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (بيروت: دار الكتب العلمية – ط1 – 1422 )، ج2ص 269.

(3) العكبري، عبد الله بن الحسين، **التبيان في إعراب القرآن**، تحقيق: علي محمد البجاوي، (الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه)ج1ص 481.

قوله تعالى:﴿**مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ**﴾ بعد قوله تعالى:﴿**مكناهم في الأرض**﴾ كأنَّه قيلَ في الأول: مكنا لهم أو في الثاني ما لم نمكنْكم وما نكرةٌ موصوفةٌ بما بعدها من الجملة المنفية والعائد محذوف محلها على النصب على المصدرية، أي: مكناهم تمكيناً لم نمكنْه لكم والالتفاتُ لما في مواجهتهم بضَعف الحال مزيدُ بيانٍ لشأن الفريقين"[1]

وذكر بعض العلماء ما ذهب إليه أبو السعود، وأضاف إضافة جديدة فقال: "الالتفات: في قوله تعالى: ﴿ **ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ** ﴾ لما في مواجهتهم بضعف الحال مزيد بيان لشأن الفريقين ولدفع الاشتباه من أول الأمر عن مرجعي الضميرين والسياق يقتضي: ما لم نمكن لهم"[2]

في ضوء ما سبق يتبين أن الفائدة من العدول هي مواجهتهم بضعف حالهم ولمزيد من التبكيت لهم، ويضاف إلى ذلك إشعارهم بالصغار والمذلة، وهذا ما ذهب إليه بعض الباحثين حيث قال:" وفائدته البلاغية في مواجهتهم بضعف حالهم ولمزيد من التبكيت لهم، وإشعارهم بالصغار والمذلة لتخف حدة كبريائهم الذي هم عليه كما أن هذه المواجهة تكون لكل واقف على الآية الكريمة فتشد انتباهه وتجعله يتأمل ويقارن حاله بحال تلك الأمم السابقة، ويوقن عندها كل اليقين أن لا ملجأ من الله إلا إليه فهو العظيم المتعال وهذا خير رادع للناس عن الغواية والكبرياء إلى الاستقامة على صراط العزيز الوهاب.

▫ **قال تعالى:** ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ

(1) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم** ج 3ص 111.

(2) محمود بن عبد الرحيم صافي، **الجدول في إعراب القرآن الكريم** (بيروت: دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، ط4، 1418 ) ج 7ص 86.

شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[1].

**موضع العدول:**

جاء التعبير في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ﴾ بأسلوب الخطاب وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (سأريهم) بصيغة الغيبة لملائمة سياق الغيبة في قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ ﴾، فعدل عن الغيبة إلى الخطاب في الآية الكريمة.

**سبب العدول:**

المتأمل في نص الآية الكريمة يجد أن سبب العدول هو تعميم الخطاب لكافة المسلمين، وهذا ما تكشفه الدراسة في آراء العلماء.

**آراء العلماء:**

لم يُشر كثير من العلماء إلى موضع العدول في الآية الكريمة، في حين أشار إليه البيضاوي وأبو السعود، والألوسي، والصابوني– على ما سيأتي – واتفق الثلاثة على أن العدول هنا أفاد: المبالغة في الحمل على الجد في الامتثال فقال أبو السعود:" قوله تعالى: ﴿ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى قومِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بطريق الالتفاتِ حملاً لهم على الجد في الامتثال بما أُمروا به إما على نهج الوعيدِ والترهيب على أن المرادَ بدار الفاسقين أرضَ مصرَ وديارُ عادٍ وثمودَ وأضرابِهم فإن رؤيتها وهي الخالية عن أهلها خاويةٌ على عروشها موجبةٌ للاعتبار والانزجارِ عن مثل أعمالِ أهلِها كيلا يحِلَّ بهم ما حل بأولئك وإما على نهج الوعدِ والترغيبِ".[2]

وصرح الألوسي بالالتفات فقال: "وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، وحسن

(1) سورة الأعراف، آية 145.

(2) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ج3ص 271.

موقعه قصد المبالغة في الحث" [1].

وقال الصابوني:"فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الحض على نهج سبيل الصالحين، والأصل أن يقال: سأريهم".[2]

وأرى أن العدول عن صيغة الغيبة إلى صيغة الخطاب في الآية الكريمة جاء للمبالغة حملاً لهم على الجد في الامتثال بما أُمروا به إما على نهج الوعيدِ والترهيب.

▫ **قال تعالى:** ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾.[3]

**موضع العدول:**

جاء العدول في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ بصيغة الخطاب، وكان مقتضى السياق أن يقال: (أفلا يعقلون) بصيغة الغيبة لملائمة قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ ﴾، ولكن عدل عن الغيبة إلى الخطاب لعلة يقتضيها السياق.

**سبب العدول:**

المتأمل في الآية يجد أن سبب العدول هو تشديد التوبيخ كما ستوضحه الدراسة في آراء العلماء.

**آراء العلماء:**

بيّن الألوسي غرض الالتفات فقال:" وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ الله تعالى

(1) الألوسي، **روح المعاني**، ج5 ص57.

(2) الصابوني، محمد علي، **صفوة التفاسير**، (القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1417) ص 437.

(3) سورة الأعراف، آية 169.

ويخافون عقابه فلا يفعلون ما فعل هؤلاء (أَفَلا تَعْقِلُونَ) فتعلموا ذلك ولا تستبدلوا الأدنى المؤدي إلى العذاب بالنعيم المقيم، وهو خطاب لأولئك المأخوذ عليهم الميثاق الآخذين لعرض هذا الأدنى وفي الالتفات تشديد للتوبيخ، وقيل: هو خطاب للمؤمنين ولا التفات فيه".(1)

وقال ابن عاشور موضحا الغرض من الالتفات:" فخوطبوا بـ( أفلا تعقلون) بالاستفهام الإنكاري، وقد قرئ بتاء الخطاب، على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب؛ ليكون أوقع في توجبه التوبيخ إليهم مواجهة".(2)

وفي صفوة التفاسير:" التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والتأنيب".(3)

وقال بعض المحدثين: "انتقال من الغيبة إلى الخطاب والمواجهة، ليلتفت هؤلاء الغافلون إلى ما هم فيه من ضلال وعمى".(4)

في ضوء ما سبق يتضح أن السر في العدول هو الزيادة أو الشدة في التوبيخ، والتأنيب.

▫ **قال تعالى:** ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.(5)

**موضع العدول:**

ورد العدول في قوله تعالى:﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ بصيغة الخطاب بصيغة

(1) الألوسي، **روح المعاني** ج5 ص 92.
(2) ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير** (تونس: الدار التونسية للنشر 1984) ج9 ص 163.
(3) الصابوني، **صفوة التفاسير**، ص 445.
(4) الخطيب، عبد الكريم يونس، **التفسير القرآني للقرآن** (القاهرة: دار الفكر العربي ) ج 5 ص 512.
(5) سورة التوبة آية 3.

الخطاب حيث عدل عن صيغة الغيبة في أول الآية الكريمة عند قوله تعالى:( وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ)، وكان مقتضى السياق استمرار طبيعة الغيبة فتكون – فإن تابوا فهو خير لهم.

**سبب العدول:**

المطالع لنص الآية الكريمة يتبين له أن سبب العدول هو زيادة التهديدِ والتشديد وهذا ما تكشفه الدراسة في آراء العلماء.

**آراء العلماء:**

علل السعود للعدول بقوله: "التفاتٌ من الغَيبة إلى الخطاب لزيادة التهديدِ والتشديد"(1).

وقال الشوكاني: "قوله"( فَإِنْ تُبْتُمْ)، أي: من الكفر، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، قيل: وفائدة هذا الالتفات زيادة التهديد، والضمير في قوله فهو راجع إلى التوبة المفهومة من تبتم خير لكم مما أنتم فيه من الكفر (وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ)، أي: أعرضتم عن التوبة، وبقيتم على الكفر فاعلموا أنكم غير معجزي الله أي: غير فائتين عليه، بل هو مدرككم، فمجازيكم بأعمالكم. قوله:( وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ) هذا تهكم بهم، وفيه من التهديد ما لا يخفى".(2)

وقال بعض المحدثين:" لما كان امر التوبة والرجوع إلى الله امر عظيم الشأن وهذا الأمر العظيم لا يناسبه إلا الخطاب المباشر يزفه المولى العلي القدير بنفسه الشريفة إلى عباده الآيبين إليه والنفس تكون أشد قرباً عند المواجهة بالخير لذا أتى الخطاب المباشر

(1) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** ج4 ص42.

(2) الشوكاني، محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير**، (دمشق: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط1، 1414) ج2 ص 381.

ليدعوهم إلى طرق باب التوبة دون تردد ووجل ويؤيد هذا ما جاء في نهاية الآية فقد عاد الأسلوب إلى الغيبة عند ذكر العذاب ليتناسب وحالة الجفاء والخزي لأولئك المبعدين الكافرين(1)

يتضح مما سبق أن السر في العدول هو زيادة التهديدِ والتشديد.

▫ **قال تعالى:** ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.(2)

**موضع العدول:**

جاء العدول في الآية الكريمة في قوله تعالى:﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ حيث جاء بصيغة الخطاب، وقد عدل عن صيغة الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾(3)، وكان مقتضى الظاهر استمرار أسلوب الغيبة بأن يقال: ( كالذين من قبلهم ).

**سبب العدول:**

المتأمل في الآية يجد أن سبب العدول هو التشديد، وزيادة التقريع والذم.

**آراء العلماء:**

وضح أبو السعود العلة في العدول فقال: "التفاتٌ من الغَيبة إلى الخطاب

(1) خديجة البناني، **الالتفات في القران الكريم إلى آخر سورة الكهف** ص 122.
(2) سورة التوبة، آية 69.
(3) سورة التوبة، من الآية 68.

للتشديد"[1]

وإلى مثل هذا ذهب الألوسي فقال مبيناً غرض الالتفات: " (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) التفات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد، والكاف في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف أي أنتم مثل الذين من قبلكم من الأمم المهلكة"[2]

وجاء في التفسير الوسيط:" جاء على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لزجر المنافقين، وتحريك نفوسهم إلى الاعتبار والاتعاظ، والكاف في قوله: كَالَّذِينَ للتشبيه، وهي في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: أنتم- أيها المنافقون- حالكم كحال الذين خلوا من قبلكم من الطغاة في الانحراف عن الحق، والاغترار بشهوات الدنيا وزينتها"[3]

وقال بعض المعاصرين مبيناً ذلك الباعث:"فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التقريع والذم".[4]

يتضح مما سبق أن العلة في العدول في الآية الكريمة هي زيادة التقريع والذم.

▫ **قال تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ

(1) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** ج 4 ص 81.

(2) الألوسي، **روح المعاني** ج5 ص 323.

(3) طنطاوي، د. محمد سيد، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، ط1، 1998) ج6 ص 345.

(4) الزحيلي د. وهبة بن مصطفى، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، (دمشق: دار الفكر المعاصر – دمشق، ط2، 1418 ). ج10 ص 293.

وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.[1]

**موضع العدول:**

ورد العدول في قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ بصيغة الخطاب حيث عدل عن صيغة الغيبة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾، وكان مقتضى الظاهر استمرار أسلوب الغيبة بأن يقال:( فاستبشر المؤمنون ببيعهم الذي بايعوا )، ولكن جاء العدول لعلة بيَّنها العلماء.

**سبب العدول**

المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب هو التشريف والرفع من شأن المخاطب.

**آراء العلماء:**

بيّن أبو السعود غرض العدول، فقال:"﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ ﴾ التفاتٌ إلى الخطاب تشريفاً لهم على تشريف وزيادةً لسرورهم على سرور".[2] وإلى مثل هذا ذهب بعض العلماء.[3]

وزاد بعض المفسرين على قول أبي السعود:"وفيه زيادة تقرير بيعهم وإشعار بكونه مغايراً لسائر البياعات، فإنه بيع للفاني بالباقي وكلا البدلين له. سبحانه وتعالى."[4]

وذهب بعض الباحثين إلى أن السر في العدول هو أن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم

(1) سورة التوبة، آية 111.

(2) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** ج 2 ص 451.

(3) الألوسي، **روح المعاني** ج6 ص 29، محمود بن عبد الرحيم صافي، **الجدول في إعراب القرآن الكريم** ج11ص41.

(4) القِنَّوجي، محمد صديق خان، **فتحُ البيان في مقاصد القرآن** عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، عام النشر: 1992 ) ج 5 ص 406.

عليه الكرام من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح قط، ولا ترى في الجهاد أحسن منه وأبلغ.(1)

في ضوء ما سبق من كلام العلماء أرى أن الغرض في العدول من الغيبة إلى الخطاب هو التشريف، فتحول السياق عن الغيبة إلى خطاب المؤمنين في قوله:﴿ **فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ** ﴾؛ لأنَّ في خطابهم بذلك تشريفاً لهم.

▫ **قال تعالى:**﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.(2)

**موضع العدول:**

ورد الالتفات في قوله تعالى: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾، فقد عدل عن الغيبة في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿ عِندَكُم ﴾ وذلك لعلة يقتضيها السياق.

**سبب العدول:**

المتأمل في الآية يتبين له أن السبب في العدول هو المبالغة والتأكيد كما سنوضحه في آراء العلماء.

**آراء العلماء:**

قال البيضاوي موضحا غرض العدول: "مبالغة في تجهيلهم وتحقيقاً لبطلان قولهم"(3).

(1) ظاهر الدين بلاغة **فن الالتفات في القرآن الكريم** ص 63.
(2) سورة يونس، آية 68.
(3) البيضاوي، **أنوار التنزيل** ج3 ص208.

والمقصود بالمبالغة في تجهيلهم، أن الله أراد أن يوضح أنهم قد وصلوا حداً في الجهالة كبيراً، وقد استدعى هذا الحد من الجهالة المجيء بأسلوب يدل عليه من جهة، ويؤكد بطلانه من جهة أخرى.

وقال أبو السعود:"والالتفات إلى الخطاب لمزيد المبالغة في الإلزام والإفحام من التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلافهم".[1]

وأرى من خلال العرض السابق لآراء العلماء أن فائدة العدول هي مزيد المبالغة في الإلزام والإفحام.

▫ **قال تعالى**: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾.[2]

**موضوع العدول:**

ورد العدول في قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ حيث عدل عن صيغة الغيبة في قوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ﴾، وقد جاء العدول لعلة يقتضيها السياق.

**سبب العدول:**

المتأمل في الآية يجد أن السبب في العدول هو التخويف والتحذير وهذا ما ستوضحه الدراسة.

**آراء العلماء:**

ذكر الشوكاني العلة في العدول فقال:" أقول لكم أنذروا، أي: أعلموا الناس أنه لا إله إلا أنا أي: مروهم بتوحيدي وأعلموهم ذلك مع تخويفهم لأن في الإنذار تخويفا وتهديدا، والضمير في أنه للشأن فاتقون الخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات،

(1) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** ج 4 ص151.
(2) سورة النحل، آية 2.

وهو تحذير لهم من الشرك بالله".[1]

وقال بعض المحدثين موضحا السر في العدول:" في الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب، تدبر معي قوله تعالى: ﴿ **يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا** ﴾ حيث جاء النص بأسلوب الغيبة ثم جاء النص بالأمر بالتقوى ولكن بأسلوب الخطاب (فاتقون)، ودلالة هذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب هو إبراز أهمية التقوى؛ لأن إنزال الملائكة وبعث الرسل كله لأجل أن نتقي ربنا، فلا نشرك به شيئا ولا نعصيه، ولذا تغير الأسلوب؛ فإن من دلالات أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب إعلاء شأن موضوع الخطاب"[2]

وعليه من خلال العرض السابق لآراء العلماء أرى أن السر في العدول في الآية الكريمة عن الغيبة إلى الخطاب التخويف والتحذير من الشرك، وإبراز أهمية التقوى.

▫ **قال تعالى:** ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾.[3]

**موضع العدول:**

ورد العدول في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْۖ﴾ حيث عدل عن الغيبة في قوله تعالى: ﴿ لِيَكۡفُرُواْ﴾ إلى الخطاب، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (فيتمتعوا)، لملائمة السياق.

**سبب العدول:**

المتأمل في الآية يجد أن سبب العدول هو التهديد والوعيد، وسوف يتضح ذلك من

(1) الشوكاني، **فتح القدير** ج 3 ص117.

(2) سامي وديع عبد الفتاح، **التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني** الأردن: دار الوضاح، )، ص5

(3) سورة النحل، آية 55.

خلال آراء العلماء.

**آراء العلماء**

ذكر البيضاوي أن الخطاب للتهديد فقال:" لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ من نعمة الكشف عنهم كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة، أو إنكار كونها من الله تعالى. فَتَمَتَّعُوا أمر تهديد. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أغلظ وعيده، وقرئ فيمتعوا مبنياً للمفعول عطفاً على لِيَكْفُرُوا، وعلى هذا جاز أن تكون اللام لام الأمر الوارد للتهديد والفاء للجواب."[1]

وقال أبو السعود موضحا الغرض من العدول:"(فَتَمَتَّعُواْ) أمرُ تهديد والالتفاتُ إلى الخطابِ للإيذانِ بتناهي السخط وقرئ بالياء مبنياً للمفعول عطفاً على ليكفروا على أن يكون كفرانُ النعمة والتمتعُ غرضاً لهم من الإشراك ويجوز أن يكون اللامُ لامَ الأمرِ الواردِ للتهديد".[2]

وإلى مثل هذا ذهب الألوسي.[3]

وصرح الشوكاني بأن العدول في الآية للتهديد والترهيب فقال:" ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والترهيب ملتفتا من الغيبة إلى الخطاب فتمتعوا بما أنتم فيه من ذلك فسوف تعلمون عاقبة أمركم وما يحل بكم في هذه الدار وما تصيرون إليه في الدار الآخرة".[4]

وقال ابن عاشور:" والخطاب للفريق الذين يشركون بربهم على طريقة الالتفات. والأظهر أنه مقول لقول محذوف. لأنه جاء مفرعا على كلام خوطب به الناس كلهم

(1) البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** ج 3 ص 230.
(2) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم** ج 5ص 120.
(3) الألوسي، **روح المعاني** ج7ص 406.
(4)الشوكاني، **فتح القدير** ج3ص 203.

كما تقدم، فيكون المفرع من تمام ما تفرع عليه. وذلك ينافي الالتفات الذي يقتضي أن يكون مرجع الضمير إلى مرجع ما قبله"[1]

وذهب بعض المحدثين أن السبب في العدول هو التهديد ؛ لأن أسلوب الخطاب أبلغ في التهديد، فقال:" (فتمتعوا) أي بهذه الدنيا، وهذه الصيغة هي صيغة أمر (فتمتعوا)، ولكن يقصد بها تهديد الكفار، بأن قيل: لهم تمتعوا في الدنيا كما تشاؤون فالعذاب قادم وسوف تعلمون، وقع في الآية التفات من الغيبة (ليكفروا بما آتيناهم) إلى الخطاب (فتمتعوا فسوف تعلمون)؛ زيادة في التهديد؛ لأن أسلوب الخطاب أبلغ في التهديد".[2]

وأرى من خلال ما سبق من أقوال العلماء أن العدول جاء في الآية الكريمة للتهديد، وذلك لأن أسلوب الخطاب أبلغ في التهديد".

▫ **قال تعالى:** ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾.[3]

**موضع العدول:**

جاء العدول في قوله تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ بصيغة الخطاب حيث عدل عن صيغة الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ومقتضى الظاهر أن يقال: (ليسألن) لملائمة السياق.

**سبب العدول:**

المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب العدول هو قصد التهديد كما سنوضحه في آراء العلماء.

---

(1) ابن عاشور، **التحرير والتنوير** ج14ص 179.

(2) سامي وديع عبد الفتاح، **التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني**، ص111.

(3) سورة النحل، آية 56.

**آراء العلماء:**

قال أبو السعود بعد ان ذكر الموضع:"وفي تصدير الجملةِ بالقسم وصرفِ الكلامِ من الغَيْبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال الغضبِ من شدة الوعيد مالا يخفى".(1)

وقال ابن عاشور مبينا الغرض من العدول: "ثم وجه الخطاب إليهم على طريقة الالتفات لقصد التهديد. ولا مانع من الالتفات هنا لعدم وجود فاء التفريع وتصدير جملة التهديد والوعيد بالقسم لتحقيقه، إذ السؤال الموعود به يكون يوم البعث وهم ينكرونه فناسب أن يؤكد، والقسم بالتاء يختص بما يكون المقسم عليه أمرا عجيبا ومستغربا".(2)

وقد وضح بعض المحدثين الغرض من العدول فقال:" هذا تهديد للكفار، وجاء الالتفات من أسلوب المتكلم (رزقناهم) إلى أسلوب الخطاب (لتسألن عما كنتم تفترون)؛ لما مر غير مرة بأن أسلوب الخطاب أعظم في التهديد؛ لما يحمل في معناه من المواجهة وتقصير المسافة المشعرة – في مثل هذا المقام – بالخوف لمن كان له قلب"(3)

في ضوء ما سبق يتبين أن الغرض من العدول في الآية الكريمة هو قصد تهديد الكفار.

▫ **قال تعالى**: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.(4)

**موضع العدول:**

جاء العدول في الآية الكريمة في قوله تعالى:﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ﴾، حيث عدل

(1) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** ج 5 ص121؛ إسماعيل الحاج عبد القادر، **تنوع صور الالتفات في القرآن الكريم ومقاصده البلاغية والإعجازية** رسالة ماجستير جامعة السودان أم درمان، كلية اللغة العربية 2008)، ص133.

(2) ابن عاشور، **التحرير والتنوير** ج14 ص 181.

(3) سامي وديع عبد الفتاح، **التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني** ص 113.

(4) سورة النحل، آية 74.

عن الغيبة في ﴿ وَيَعۡبُدُونَ ، وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ في قوله تعالى:﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴾[1] وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (فلا يضربوا) لملائمة السياق.

**سبب العدول:**

المطالع لآية يتبين له أن السبب في العدول هو الاهتمام بما نُهوا عنه وسيتضح ذلك السبب في آراء العلماء.

**آراء العلماء:**

قال أبو السعود مبينا الغرض من العدول بعد أن ذكر موضع العدول: (التفات إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي، أي لا تشركوا به شيئاً، والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد إلى النهي عن الإشراك به تعالى في شأنٍ من الشؤون).[2]

وبيّن الألوسي أن وجود الفاء هنا للدلالة على ترتيب النهي على ما عدد الله عليهم من نِعَمِهِ، إذ قال: (التفات إلى الخطاب للإيذان بالاهتمام بشأن النهي، والفاء للدلالة على ترتيب النهي على ما عدد من النعم الفائضة عليهم منه تعالى).[3]

وعليه فالسر في العدول من الغيبة إلى الخطاب في الآية الكريمة هو الاهتمام بشأن النهي، وهذا ما وضحه بعض المحدثين فقال:" وسبب الالتفات أن أسلوب الخطاب أبلغ في مقام الأمر والنهي؛ لأنه يختصر المسافات الذهنية، ويكون مباشرا وقويا، بينما جاء سابقا الإخبار بأسلوب الغيبة؛ للإعراض عن الكفار بسبب ما هم فيه من الضلال".[4]

---

(1) سورة النحل، آية 73.

(2) أبو السعود، **إرشاد العقل السليم** ج 5ص128.

(3) الألوسي، **روح المعاني** ج 14ص193.

(4)سامي وديع **التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني**، ص 149.

## الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

فبعون الله وتوفيقه قد انتهيت من دراستي العدول عن ضمير الغيبة إلى الخطاب من سورة الفاتحة إلى آخر سورة الإسراء دراسة دلالية، وقد توصلت فيها إلى نتائج، من أهمها:

1. أن العدول له عدة مسميات مختلفة منها: الالتفات والانزياح والحمل على المعنى، والانعطاف، والتلون، والمجاز وغيرها.
2. البحث في العدول يثبت إعجاز القرآن الكريم وتميزه في أسلوبه وتراكيبه.
3. العدول في القرآن الكريم جاء لمغزى وغرض معين.
4. أن العدول عن ضمير الغيبة إلى الخطاب قد جاء لدلالات متعددة منها:

1. إظهار كمالِ الاعتناءِ بشأن الاستجابةِ وتشريفِ الداعين بشرف الخطاب.
2. الزيادة أو الشدة في التوبيخ، والتأنيب أو زيادة التهديدِ والتشديد.
3. التقريع والذم.
4. التشريف للمخاطب.
5. التخويف والتحذير من الشرك، وإبراز أهمية التقوى.

وأخيرا وليس آخرا أرجو من الله . تبارك وتعالى . أن أكون قد وفقت فيما كتبت والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه في كل لمحة ونفس عدد ما وسع علم الله.

### التوصيات:

في ضوء هذه الدراسة يوصي الباحث بدراسة العدول في كتب التفاسير وكتب

الحديث النبوي الشريف لإخراج الدلالات المتعددة.

## قائمة المصادر والمراجع


1. **مصدر العربية الأول، ومرجعها: القرآن الكريم.**
2. ابن جني، أبو الفتح عثمان **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها،** (القاهرة: وزارة الأوقاف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية 1420هـ).
3. ابن دريد، محمد بن الحسن بن دريد، **جمهرة اللغة،** تحقيق: رمزي منير بعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، ط1، 1987م).
4. ابن السكيت، يعقوب بن إسحاق، **إصلاح المنطق،** تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، (مصر: دار المعارف، ط4، 1949م).
5. ابْنُ سِيدَهْ: علي بن إسماعيل، **المحكم والمحيط الأعظم،** تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2000م).
6. ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير** (تونس: الدار التونسية للنشر 1984م).
7. ابن عجيبة، **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد،** تحقيق أحمد عبدالله القرشي رسلان، (القاهرة: الدكتور حسن عباس زكي 1419هـ).
8. ابن عطية، عبد الحق بن غالب **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (بيروت: دار الكتب العلمية – ط1 – 1422هـ).
9. ابن فارس، أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (الناشر: دار الفكر، 1979م).
10. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **أدب الكاتب،** تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد ، (مصر: المكتبة التجارية، ط4، 1963م).
11. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم،** تحقيق: محمد حسين شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ط1، 1419هـ).
12. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، **لسان العرب،** (بيروت: دار صادر، ط3،

1414هـ).

13. أبو حيان، محمد بن يوسف، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، (بيروت: دار الفكر 1420هـ).

14. أبو السعود، محمد بن محمد **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

15. أبو شُهبة، محمد بن محمد بن سويلم، **المدخل لدراسة القرآن الكريم**، (القاهرة: مكتبه السنة، ط2، 2003 م).

16. أحمد مطلوب، **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**، ( الدار العربية للموسوعات، ط1، 1427هـ).

17. إسماعيل الحاج عبد القادر، **تنوع صور الالتفات في القرآن الكريم ومقاصده البلاغية والإعجازية** رسالة ماجستير جامعة السودان أم درمان، كلية اللغة العربية 2008م).

18. الألوسي، عبد الله بن محمود، **روح المعاني**، تحقيق علي عبد الباري عطية، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ).

19. الأنباري، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، **الزاهر في معاني كلمات الناس**، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1992م).

20. بهاء الدين السبكي، **عروس الأفراح**، (شروح التلخيص)،(القاهرة، عام1937هـ).

21. البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي بيروت، ط1، 1418هـ).

22. الجرجاني، علي بن محمد بن علي، **التعريفات**، تحقيق: جماعة من العلماء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1983م).

23. الجوهري، إسماعيل بن حماد، **تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1987 م).

24. خديجة محمد أحمد البناني، **الالتفات في القران الكريم الى آخر سورة الكهف** رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية جامعة أم القرى 1414هـ).

25. الخطيب القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**،(بيروت: دار إحياء العلوم).

26. الخطيب، عبد الكريم يونس، **التفسير القرآني للقرآن** (القاهرة: دار الفكر العربي ).

27. الخليل بن أحمد الفراهيدي، **كتاب العين**، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، (نشر: دار مكتبة الهلال).

28. د. تمام حسان، **اللغة العربية معناها ومبناها**، (نشر: عالم الكتب، ط5، 2006م ).

29. داود، د. محمد، **الدلالة والحركة دراسة لأفعال الحركة في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة**، ( دار غريب للطباعة والنشر، 2000 م).

30. الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس** للزبيدي تحقيق/مجموعة من المحققين (نشر: دار الهداية ).

31. الزحيلي د. وهبة بن مصطفى، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، (دمشق: دار الفكر المعاصر – دمشق، ط2، 1418هـ).

32. الزُّرْقاني، محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، (الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3).

33. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ( الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط1، 1957).

34. الزمخشري، محمود بن عمرو، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ).

35. الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1407هـ).

36. سامي وديع عبد الفتاح، **التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني** الأردن: دار الوضاح).

37.السبكي، علي بن عبد الكافي، **الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي**، تحقيق: جماعة من العلماء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1404هـ).

38. السكاكي، **مفتاح العلوم**،(القاهرة، 1356هـ).

39. الشوكاني، محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير**، (دمشق: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ط1، 1414هـ).

40. الصابوني، محمد علي، **صفوة التفاسير**، (القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ).

41. الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن** تحقيق: أحمد محمد شاكر، (الناشر: مؤسسة الرسالة ط1، 1420هـ).

42. طنطاوي، د. محمد سيد، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، ط1، 1998م).

43. ظاهر الدين، **بلاغة فن الالتفات في القرآن الكريم** رسالة دكتوراه، جامعة بشاور باكستان).

44. عبد الموجود متولي بهنسي، **العدول عن النمطية في التعبير الأدبي**، ( 1413هـ).

45. العكبري، عبد الله بن الحسين، **التبيان في إعراب القرآن**، تحقيق: علي محمد البجاوي، (الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه).

46. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، (بيروت: المكتبة العلمية).

47. القِنَّوجي، محمد صديق خان، **فتحُ البيان في مقاصد القرآن** عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، عام النشر: 1992م).

48. الكرماني، محمود بن حمزة بن نصر، **غرائب التفسير وعجائب التأويل** (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية).

49. محمود بن عبد الرحيم صافي، **الجدول في إعراب القرآن الكريم** (بيروت: دار الرشيد، دمشق – مؤسسة الإيمان، ط4، 1418هـ).

50. يحيى بن حمزة العلوي، **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، (بيروت: المكتبة العنصرية، ط1، 1423هـ).

# The deviation from the absent pronouns to the discourse pronouns

## from Surah Al-Fatihah to Surah Al-Israa - a semantic study-

**Dr.Ragab Shehata Mahmoud Mohamed**
*Al Madinah International University - Malaysia*
ragabsh45@gmail.com

**Abstract:**

This study dealt with the deviation from the absent pronouns to the discourse pronouns from Surah Al-Fatihah To the and Surah Al-Israa - a semantic study-

This research aims to identify the concept of deviation and significance and the semantic effect To the deviation from the absent pronoun to the speech pronoun in the Surahs of the Qur'an from the beginning of Al-Fatihah to the end of Surah Al-Israa , and The importance of research lies in studying this type of deviation and highlighting its semantic value and aesthetic features.

the researcher his followed in this study the descriptive, inductive and analytical method. The results of the study showed that this type of deviation, benefit from several semantics of it;

reprimand and defamation , honoring the recipient, intimidation and warning against polytheism. **Key words**:

the absent pronouns; the discourse pronouns; deviation; significance; pronoun; Al-Fatihah; Al-Israa .

Received:06/02/2020 □ Accepted:17/05/2020 □ Published: 01/06/2020